ولما أقبلت عليه الدنيا إقبال الأتى المنهمر ، وبسم له الدهر وصلحت حاله ، أخذ محلا فى « خان الكمرك » فى المصرونية بالقرب من المدرسة العادلية ، وأقام مسرحه هناك فى منتصف المدينة . وهنا استفاض الحديث فى المنازل والمجالس عن عظيم مواهبه وسحر فنه ، وكثر رواد مسرحه ، وعشاق موسيقاه ، وتمثيل رواياته ، فلا حديث فى المدينة إلا حديثه ، ولا ذكر إلا ذكره ...

وكان كلما تدفقت عليه الأموال بنفقها فى سبيل تحسين مسرحه وجلب الحاجات الفنية الغامضة إليه ، ففتن الناس وخلب عقولهم حتى بلغ من شأن الإهتمام برواياته أن صار الفقير منهم الذى لا يملك ثمن بطاقة الدخول يبيع فراشه وأوانى بيته وحلى زوجته ليشاهدها ويجتلى طلعته فيها ، وكان لشدة الإزدحام يؤم الواحد منهم القاعة من الصباح ويبقى فيها حتى المساء ليشاهد الرواية ، فإذا ما انقضت اللذة بمشاهدة رواية تولدت شهوة ولذة بمشاهدة غيرها . ومن شدة الإزدحام على أبواب القاعة المقام فيها المسرح أسس الدخول إليها لا يكون إلا تحت إشراف السلطات المحلية ، وصارت تباع التذاكر لدى مكاتب المتعهدين قبل ثلاثة أيام ، ومن يتأخر عن حجز مكان له فى أسبوع قبل ثلاثة أيام أو أربعة أيام يضطر مكرها للحظوة بمشاهدة هذه الروايات فى الأسبوع الذى يليه .

وكان للوالى فى قاعة المسرح مقصورة يقصدها كل ليلة ويمتع سمعه وبصره بهذا الفن الأخاذ بالرغم من جهله اللغة العربية التى يمثل فيها القبانى رواياته .

ومن عادة الدهر ألا يبقى على حالة واحدة ، وأنه إذا ضحك لإنسان يوماً ما سيتجهم له إذا دالت دولته وولى زمانه وشالت نعامته ، وخانه صحبه وأوطانه ، وقديماً قال الشاعر : « من سره زمن ساءته أزمان ... »

(البحث صلة)

عيسى كنعان

الضمير العالمى

الأستاذ عبد الرحيم عثمان صارو

طالت على الأيام رقدته وخلا من الوجدان والمهج
فمتى ترى تفتر مقلته وتقرّ عين العالم اللهج ؟

ثملت من الإغفاء عيناه أم ذاب تحت جفونه البصر ؟
ياليت شعرى أين مثواه بين الجوانح أيها البشر ؟ !

تصحو الظالم إن جرى الوسن فى مقلتيه ويعجى العدل
وإذا تنبه نامت الفتن بين الورى واستأمن الكل

فيم « الجامع » أيها الناس : قول يسر ومنطق عجب ؟
و « موائق » يتعجب الناس من حسنها والدر والذهب

فيم « الجامع » راح ينهزم حق بها ويعز بهتان
لو صحت النيات والذمم لم يشق تحت الشمس إنسان

لو لم تك الأهواء رائدكم يا من ملكتم قبضة الكون
ما احتاج حق أن يناشدكم — عبثاً — له قبساً من العون

لو لم تك الأهواء غالبة ومطامع تعدو وتستبق
لم تخذلوا للعرب واضحة غراء مثل الشمس تأتلق

تاه السلام وحار بينكم ويكاد يقضى نحبه طفلا
تتمشدقون به وفمكم يردى السلام ويورث القتلا

أوقدتموها بيننا شعلا حتى قهرتم طاغياً حرتا
ومن العجائب : كل ما فعلا معكم فعلتم شبهه معنا

سيظل بين جوانب الأرض تمس الوجوه وضيمة الأمل
ما ثمت طى جوانح البعض أسطورة الذئب والحمل

عبد الرحيم عثمان صارو